عقاب النفس

(تابع ما قبله)

جاء الليل وتلاه نهار فليل ايضاً ووليم بك على حاله المر . وكان حبه لأسما يزيد وهواجسه تتكاثر من يوم الى يوم حتى نحل بدنه واصبح من يراه لا يعرفه

وكانت أسما محور افكاره في ليله ونهاره وكان يردد من وقت لآخر . . انها تعتبرني ثقيلاً عليها . . ولا تريد ان تراني . . فاللهمَّ رحمتك . .

غلطت يا وليم بك فانك لا تستوجب الرحمة لانك لم ترحم . .

وبعد ان ذاق وليم بك عذابات احرّ نار الجحيم ابردها .. انخذلت كبرياءه وانكسرت نفسه وانحطت انفته . وتمنى ان تكون أسما زوجة له بغض النظر عن درجتها وعن الوسط التي هي فيه

وما خطر له هذا الفكر حتى بردت ناره قليلاً وارسل الى القس صديقه فجاء اليه وفاتحه في هذا الموضوع . فسكت القس كعادته . ولكن السرور كان ظاهراً على وجهه . . وفي الحقيقة فانه كان مسروراً . . لانه لم يكن ينتظر لأسما مثل هذا النصيب . . نعم انه وعد بها ابن اخته ولكنه رأى الآن ان حظها اكبر من ذلك . فلم يشأ ان يحبس سعدها

وبعد ان فكر قليلاً اجاب انه سيتكلم معها الليلة ويعلم افكارها ويجاوبه الليلة الآتية

وخرج القس والدنيا لا تسعه من سروره لانه سيكون صهر القاضي الشريف الغني . . حتى اذا وصل الى بيته دخل اليه باسماً مفتخراً وكانت أسما قلما تراه يضحك . فاستغربت ذلك وقالت باسمة . انك مسرور اليوم يا أبي فما هي اسباب سرورك ؟ قال نعم مسرور وكيف لا يُسر من له ابنة نظيرك . قالت انني معك على الدوام فما ذلك بالسبب الصحيح . قال ان كنتِ لا تصدقيني فاحذري اسباب

ضحكي قالت حاشا لي ان اكذبك ولكنني استغرب ضحكك . فهل عادمتري ؟

فعبس الشيخ وقال كلا . قالت اذن ماذا ؟

قال ألا يمكنك ان تعلمي بدون ان اعلمكِ اذن فقد ضاع ذكاؤك وضاعت تربيتي فيك . . فخجلت الفتاة وقالت . . انك علمتني كل شيء يا أبي ولكنك لم تعلمني التحجيم ولذلك فلا اريد ان أعلم سبب ضحكك فاحفظ سرك لنفسك . . فجلس القس وجذبها اليه وقبلها في جبينها قبلة لا يدرك سرها الا الآباء وقال بغتة ان صديقنا وليم بك طلب يدكِ الليلة . . فبغتت الفتاة واصفرَّ وجهها وقالت و بماذا اجبته ؟ قال بان استشيرك واجاوبه الليلة المقبلة قالت . ومتى فاني عاهدته على الحب الصحيح وانا لا انكث بعهدي كما علمتني . . .

فاعتدل الشيخ في مجلسه كمن يستعد لحديث طويل وقال . اسمعي يا ابنتي انني ربيتكِ الى الآن فلم ارَ اطوع منك لي وخبرتك فلم ارَ احكم منك فتأملي في كلامي و بعد ذلك احكمي لنفسك

فمتري ياعزيزتي لا يملك شيئاً الآن وهو لا يزال في المدرسة ومصاريف تعليمه تُدفع من جيبي كما تعلمين . . والوقت الذي فيه ينتهي من دروسه ويمكنه فيه ان يكتسب للقيام بمعيشة عائلة واولاد لا يزال بعيداً

نعم ان متري ابن اختي واحبه كما احبكِ واود ان يكون مرتاح النفس ولكنني من جهة اخرى ازيد ان ارى لك مستقبلاً باهراً واخاف ان يدركني الموت قبل ان أرى ذلك

ولا يخفاكِ ان وليم بكٍ من الرجال العظماء وهو وان كان يتقدمك في السن ولكنه اقوى من كثيرين ممن تراهم من شبان اليوم وانتِ لا تجهلي مركزه ووظيفته وغناه وان كثيرات من الفتيات يتمنينَ ان يكنَّ خادمات له ولولا انه يحبكِ حباً شديداً لما تنازل ان يتخذكِ حليلة له . واني اذكر اني سألتكِ في الماضي عن حبكِ لمتري فكان جوابكِ انكِ تحبينه كأخيكِ وهو يحبكِ كذلك وذلك يختلف عن حب وليم بك لكِ

والآن فاتبعي نصيحتي وارحمي شيخوختي واقبلي هذا النصيب الذي ساقه الله اليكِ لكي أراكِ سعيدة قبل موتي واقول كما قال سمعان الشيخ (يا رب اطلق عبدك بسلام)

ولي سؤال اخير اوجهه اليكِ الآن ارجو ان تجيبيني عليه بحرية وجلاء . فهل تحبي وليم بك ؟ فاطرقت الفتاة الى الارض وتنهدت وسكتت فألح القس قائلاً جاوبي يا أسما فالموقف حرج فاحمرّت الفتاة خجلاً وقالت اني لا ابغضه . قال تأملي يا أسما فانا اعتبر هذا الجواب رضاء منكِ بوليم بك. قالت اعتبره كيف تشاء فانا لا اخالف لك امراً ما دام هذا الرضاء يجعلك سعيداً. فابتسم ابيها وقال بورك فيكِ من ابنة كريمة مطيعة وابشركِ بانكِ تستحقين هذا النصيب الذي وضعه الله بين ايديكِ واجتذبها اليه وقبل جبينها تلك القبلة الطاهرة

﴿ الفصل الخامس ﴾

« الزفاف »

وفي الليلة التالية زف القس بشرى قبولها الى وليم بك فكاد يجن من السرور . ولرغبته في انتهاء الامر سريعاً اعلن خطبته رسمياً في اليوم التالي فتلقى الناس هذا الخبر بمزيد الاستغراب معجبين كيف ان وليم بك القاضي الفتى المتكبر يتنازل لهذه الدرجة للاقتران بابنة كاهن بسيط مع انه ذو مطامع كبرى فقرروا اخيراً ان للحب سلطان فوق كل سلطان

وقد حدد القاضي موعد القران يوم الاحد المقبل بعد خمسة عشر يوم . وكتب اوراق الدعوات وارسلها لاصدقائه وبينها ورقة لصديقه العزيز جورج . . . ولبث وليم بك يعد الدقائق والساعات الباقية ليوم الزفاف حتى أتى ذلك اليوم

وقد نصبت السرادق وتوافد المدعوون من سائر الجهات وبينهم جورج الصديق العزيز للعريس

وقد اتقن الطهاة اصناف الاكل ومدت الموائد فأكل المدعوون بسرور ولذة وكان فرح لا نظير له بين الافراح

اما منزل القس فكان ممتلئاً بالنساء صديقاته وصديقات أسما اللواتي كنّ يجهزنها بما تجهز به العرائس

وكان يخطر على فكر أسما من وقت لآخر متري رفيق صباها وكيف سيكون وقع هذا النبأ شديداً عليه فيخفق قلبها وتقترب الدموع من عينيها رحمة به فتمسك نفسها وتحبسها بشدة

اما القس فكانت الدنيا لا تسعه من السرور فكان داخلاً خارجاً يقضي ما يطلبونه منه واظهر كل قوته وقتذاك فكان كمن هو في سن الشباب

ولما آن الوقت الذي تؤخذ فيه العروس جاء جورج ومعه بعض الاصدقاء واركبوا العروس مركبة فاخرة مزينة بالازهار واتبعتها المدعوات في باقي العربات وسار الموكب يتقدمه الموسيقى فعربة العروس فعربات المدعوات . وكانت العروس لابسة ثوب الاكليل الناصع البياض ومغطاة بوشاح ابيض مكلل بالازهار الاصطناعية وكان يظهر منه وجهها الوضاح ويكاد الرائي ان لا يفرق بين وجهها والوشاح لولا ان هذا مشوب باحمرار طبيعي . وظل الموكب يسير على هذا المثال الى ان اقترب من منزل العريس المزدان بالاعلام والانوار وكان الزحام شديداً هناك فوقف الموكب هنيهة ريثما يخف الزحام

وتابع الموكب سيره حتى وصل الى السراي فانفصلت الموسيقى وارتكنت الى يمين الباب . واوقفت مركبة العروس تجاه الباب تماماً وأخرجت العروس بين اثنتين وسارت ببطء والناس تختلس منها الانظار حتى غابت داخل الباب كما تغيب الشمس وسط القتام

وما وافت الساعة العاشرة مساء حتى اقبل القسوس بملابسهم الرسمية ليقوموا بصلوة الاكليل فجلس العريس على كرسي والى يمينه العروس على كرسي آخر وابتدأوا في صلاة الاكليل

وبعد ساعة انتهت الصلاة وادخلت العروس الى خدرها . . وتقدم المدعوون وفي مقدمتهم چورچ يهنئون العريس ويدعون له بالرفاه والبنين وجميعهم يحسدونه على هذه اللقطة الثمينة

دخلت أسما الى خدرها وجلست على مقعد واتكأت بمرفقها على مسنده واسندت خدها على كفها وأخذت تفكر . ولعلها كانت تفتكر في ذلك الوقت بذلك المسكين متري الذي يظنها الآن محافظة على عهده وهي تستغرب كثيراً كيف انها قبلت زواج هذا مع انها عاهدت ذاك . فندمت . ولكنها التمست لنفسها عذراً هو رغبتها في سعادة ابيها

وبعد انصراف الناس دخل العريس الى مخدعه فوجد أسما جالسة فرنا اليها بعينين يتدفق منهما الحب الهائل وابتسم قائلاً . . ايه يا أسما لقد اصبحتِ ملكي الآن . . فابتسمت أسما فقبلها من جبينها وكانت قبلته هذه الاولى والاخيرة

﴿ الفصل السادس ﴾

« حقيقة جارحة »

وابتدأ القاضي في خلع ملابسه وقبل ان يتمه سمع طرقاً على باب المخدع فخرج ليرى من الطارق فرأى القس وبصحبته جورج . فابتسم جورج وقال لا تؤاخذنا فقد ازعجناك فابتسم وليم بك وقال لا بأس فالليل طويل

وكان القس اراد ان يذهب الى بيته ليستريح فيه وما خطأ خطوتين الى الخارج حتى وخزه ضميره بشدة وعلم ان عليه واجباً يجب ان يقوم به ورأى ان النوم سيشرد منه ان هو ذهب الى بيته ولم يقم بذلك الواجب

فعاد للسراي فوجد جورج امامه وكان لم ينم بعد فأخذه معه وذهبا ونادیا وليم بك كما رأينا

سأل وليم بك ما الذي تريده الآن يا أبتي قال هي مسألة بسيطة اريد ان

ابلغك اياها قال دعها للصباح فالصباح ليس ببعيد . قال كلا

وكأن القاضي تبرم من هذا الالحاح واراد ان يسمعه كلاماً قاسياً كعادته ولكنه ذكر ان أسما بجانبه فبلع ريقه وسكت . وبعد قليل قال هات يا أبي ما عندك قال القس القصة طويلة وتحتاج لجلوس وقد تعبت كثيراً اليوم فهلموا نجلس فتضايق القاضي وسكت وجلسوا الثلاثة كأن على رؤوسهم الطير

فتنحنح القس وتضايق القاضي واعتراه سكون مهيب ذلك السكون الذي يتقدم الزوابع وقد شعر وقتذاك بان مصيبة ستنقض على رأسه في الذ ساعات حياته

وكان جلوسهم امام النافذة فكان الهواء يحرك شوارب القس فيتخيلها القاضي حراب مسنونة ستغرز في فؤاده . . وابتدأ القس في الكلام بصوت عالٍ تعوّد الخطابة على منابر الوعظ فقال

قبل ان ابتدئ في قصتي اعلمك يا وليم بك ان أسما قريبتك ليست ابنتي . فجزع القاضي واصفرّ وجهه وكان يود لو يعطي القس كلما ملكت يداه لكي يترك هذه القصة للصباح لان ضميره كان يحدثه بان هذه القصة ستكون شؤماً ووبالاً عليه . . وقد أثر هذا الاستهلال في نفسه حتى ظهر الاصفرار على وجهه . . . فنظر اليه القس وقال ما بال وجهك اصفرّ . فاجابه بمرارة تم حديثك . . قال القس ولا يسوءك ذلك فانني ربيتها كأبنتي ولا يوجد في الدنيا من يعرف حقيقة نسبها فاطمئن

فاسرع نبض القاضي وخشي ان يموت بالسكتة فاجاب بحدة وبعد ذلك يا أبتي . فاردف القس وقال مفتخراً لا يخفاكم انني كنت في صغري قساً بسيطاً في قرية صغيرة وهذه الوظيفة التي انا فيها الآن استحقيتها بجدي ونشاطي وهكذا دائماً لكل مجتهد نصيب

فتضايق القاضي وقال ان كانت هذه كل قصتك فدعها للصباح وقد قبلت أسما مهما يكن في تاريخ حياتها . اجاب القس كلا بل يجب ان اتمم فاستسلم القاضي وقال تمم . قال قلت لكم اني كنت قساً بسيطاً في قرية صغيرة وكنت ساكناً في

منزل صغير جداً بسيط الفراش ضد منزلي الحالي فاني رتبته جيداً والفضل في ذلك عائد لأسما فان ذوقها حسن في الترتيب . . فابتسم جورج وتنهد القاضي وسكت

قال الاب الثرثار وكان بجانب بيتي كوخاً صغيراً خالياً من السكان . فاغمض القاضي عينيه وظل ساكتاً

فظن القس ان القاضي يريد ان ينام فاراد ان ينبهه فسكت هنيهة وقال بغتة بصوت أعلى . وفي ذات يوم جاءت فتاة واستأجرت ذلك الكوخ . فجزع القاضي واردف القس فقال وكانت تلك الفتاة جميلة جداً وكانت تقول ان اسمها روزا . فتنهد القاضي كمن ازيح عن صدره حمل ثقيل . قال القس وكانت هذه الفتاة حاملاً وتقول انها ارملة . . فعاد الجزع للقاضي وفتح عينيه وحملق في القس كمن يريد ان ينتزع الكلام منه انتزاعاً

قال القس وكانت هذه الفتاة امينة جداً فكانت تخدم في بيتي مجاناً وتشتغل في الحقول وتعيش من تعبها

وكأنه تعب من الكلام فسكت قليلاً فقال القاضي يا أبتي تم حديثك فقال وكانت هذه الابنة عفيفة النفس جداً فكنت اعطيها شيئاً تستعين به بكل صعوبة. وعاشت هذه الفتاة بيننا سبعة شهور ومرّ علينا احد الاعياد فارادت ان تتقدم للاشتراك فاعترفت عليّ وسلمتني سرها وتعهدت لها بعدم افشائه ما دامت في قيد الحياة وقد علمت انها تخفي اسمها الحقيقي وبعد قليل جاءها المخاض فوضعت طفلة واصيبت بحمى النفاس فسلمتني الطفلة وقضت نحبها بين يديّ. فأخذت انا الطفلة وسميتها أسما وربيتها وهذبتها كأحسن الفتيات . . فقال القاضي ها انا يا ابتي عرفت نسب أسماء وقد قبلتها كذلك ولا لزوم لشرح باقي قصتها فأنه سر اعتراف يصعب عليك ان تبح به على ما اظن . قال القس كلا فقد أمرتني هي بذلك ولا خطية عليّ فيه واردف يقول وكانت هذه الفتاة ابنة تاجر غني . . . .

وعند هذه اللفظة تنبه جورج كمن أفاق من نعاس عميق واحدق بالقس فاتحاً فمه لاستيعاب باقي القصة . . وكأنما ذكر جورج في هذه الدقيقة اخته المفقودة

فحدث له هذا التأثير

اما القاضي فلا تسل عن حاله فقد اسند رأسه الى صدره وفتح عينيه الى آخر حدهما محملقاً بالقس ومن رآه في هذه الحال يظن انه احد الاجسام المحنطة وعاد القس فقال وهذه المسكينة احبت احد الاسافل فوعدها ان يقترن بها فحملت منه وطالبته بوعده فأباه عليها فخافت على شرف ابيها وذويها وتركت بيتها وخرجت هاربة

واستراح القس هنيهة ومكث الجميع في سكوت مهيب كأن ملاك الموت يخطب في اهل القبور

وعاد القس لحديثه فقال اما اسمها الحقيقي فهو استر واسم حبيبها السافل وليم.

ولو انقضت صاعقة من السماء على رأس القاضي لما جزع منها كما جزع من لفظ هذين الاسمين فانه للحال فغر فاه وهب بغتة وصرخ جازعاً . ابنتي زوجتي. وسقط مغشياً عليه ....

﴿ الفصل السابع ﴾

« عقاب مخيف »

فجزع القس جداً لهذه البغتة ولام نفسه كثيراً على تسرعه في هذا الحديث وندم على ذكره ولات ساعة مندم

مهلاً ايها القس فلا لوم عليك فان الله جعلك آلة لعقاب نفس شريرة

اما جورج فقد فهم القصة تماماً وعلم ان أسما هي ابنة اخته استر المفقودة وأخذت الدموع تذرف من عينيه

وكانت أسما قد سمعت صوت ابيها الزنان فاقتربت من الباب بحيث سمعت كل القصة وعند سقوط جسم القاضي خرجت هالعة فرأت القس واقفاً وجورج

(البقية تأتي)